الحجّ[1]

إعداد: د. خالد راتب - أ. هاجر جاد الحق

فضيلة الشيخ: طه حبيب[2]

الحَجُّ لغة: القصد إلى معظَّم، وهو في الشريعة: قصد البيت الحرام (الكعبة) لأداء ركن من أركان الدين هو الطَّواف والوقوف بعرفة بما يلابسهما من إحرامٍ وسعي وما إلى ذلك من بقية الأعمال المكمّلة للحج. وقصد البيت الحرام للزّيارة والطّواف قديمٌ في الناس، فقد كانت العرب تحجُّ إلى الكعبة قبل الإسلام لاعتقادهم أنها بيت الله ولقد كانوا يُعظِّمونها لذلك، فلم يعبدها منهم أحد، كما أنَّ أحدًا منهم لم يعبد الحجر الأسود مع اشتهار الوثنية وكثرة عبادة الأصنام قبل البعثة، بل كان تعظيمهم للحجر؛ لأنه منسوب لله، حتى اعتقد كثير منهم أنه نزل من السماء.

وقد أوجب الله الحجّ على المسلمين الأحرار العقلاء البالغين الأصحاء القادرين على الزاد والراحلة متى كانت تلك المقدرة بعد أداء ما لا بدّ لهم منه لنفقة عيالهم ومساكنهم، وكان الطريق إلى البيت مأمونًا. وقد فرضه الله على كل مسلم على الوصف الذي سبق في العمر مرة، وفرضيته ثابتة بالكتاب العزيز، قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧)

---

(١) نشر بمجلة الأزهر، المجلد الثالث، عدد شوال، سنة ١٣٥١هـ. هذا المقال -الذي تم اختياره من كنوز تراثنا الإسلامي- يمتاز بأنه جمع بين فقه الحَجّ وحِكَمِهِ ومقاصده، وبيان عظمة البيت الحرام، والردّ على الشبهات المثارة حوله، عن طريق بيان الحكمة من مشروعية الحج، ووضع البيت واتخاذه قبلة؛ ففيه نفيٌ للشِّرك والزُّور والبهتان والإلحاد، وقد جاء كل ذلك في أسلوب سهل سلس مدعم بالأدلة وينمّ عن رسوخ علمي للكاتب. (المجلة).

(٢) طه مصطفى حبيب الأزهري، الحنفي (٠٠٠ - ١٣٥٢ هـ) (٠٠٠ - ١٩٣٣ م): عالم جليل ساهم في تحرير مجلة الأزهر، وعضو المحكمة العليا الشرعية، من تصانيفه: الإسلام وأسس السعادة، ومذكرات في المقارنة الفقهية، وله فتاوى عديدة في مجلة الأزهر، توفي بالقاهرة عام (١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م). (انظر: معجم المؤلفين، عمر كحالة، ٥/ ٤٥). (المجلة).

وثبتت الفرضية بقول النبي ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ...»[٣] الحديث. وقد حجَّ صلى الله عليه وسلم. أمّا أنّ الحِجّ فُرِض مرة واحدة؛ فَلِمَا أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والدارقطني في سننه، والحاكم في المستدرك عن ابن عباس، ولفظه قال: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ. فَقَامَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ فَقَالَ: أَفِي كُلِّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لَوْ قُلْتُهَا لَوَجَبَتْ، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا، الْحَجُّ مَرَّة، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ»[٤].

وقد اشتمل الحج على جملة أفعال سنبيّنها ونبيّن حكمة مشروعيتها.

الحكمة في وضع البيت واتخاذه قبلة - نفي الشرك والزور والبهتان والإلحاد:

إنَّ مَنْ تدبَّر فيما يحيط به مِنَ الكائنات العلويَّة والسفلية لا شك يشعر بروعةٍ تقع في قلبه كل موقع وتملك عليه حواسه ولبّه، فالجبال الراسيات والأنهار الجاريات والبحار العظام وقبّة الفلك وما هي عليه من نظام، والسحاب بين الأرض والسماء يحمل من ماء يرسَل إلى الأرض الموات فيحييها، وإلى الأنفس فيرويها وإلى النباتات فينمِّيها، والرياح العواصف تدفع الماء آونة، والصواعق أخرى، كل هذا يدفع بالإنسان إلى التفكير في ذلك النظام البديع المرتَّب أحسن ترتيب وأحكمه، يدفعه إلى البحث في أن ذلك النظام لا يتصوّر أن يكون موجودًا مصادفةً بل لا بُدَّ له من مبدع أنشأه وأبدعه، وأنَّ ذلك المسيطر لا بدَّ أن يكون ذا قدرة فوق القُدَر وعلم لا يوازنه علم، وألا يكون له شريك يدانيه أو يقرب منه؛ إذ لو كان ذلك ممكنًا لما كان هذا النظام الذي وضع فيه كل شيء موضعه، فالكواكب تسير على نسبٍ معيَّنة ونظامٍ محكم لو خرجت عنه لاختل نظام العالم، والحيوانات أعطي كل منها ما يحتاج إليه في تقويم وجوده، ووهب له من الأعضاء ما لا بقاء له بدونه، ووضعت الأعضاء فيه على ترتيب لو وضعت على غيره لهلك، وقد ألهم استعمال تلك الأعضاء فيما يجلب نفعه ويدفع ضرره:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)

وإذا كان التفكير الصحيح يهدي إلى الرّشد وإلى الإيمان بواجب الوجود وإلى أنَّه الخالق الرازق المعطي الوهَّاب المنعم بجلائل النِّعَم ودقائقها، فهو أيضًا يهدي المتأمِّل إلى أنَّ ذلك الخالق البارئ يستوجب الشكر، وأنَّ على الإنسان أن يعبده شكرًا له على تلك النعم الباطنة والظاهرة، غير أنَّ العقل إذا اهتدى إلى ذلك يحار في كيفية عبادة الرحيم الرحمن؛ إذ لا يستطيع

(٣) صحيح البخاري، عن ابن عمر – رضي الله عنهما– حديث رقم: (٨). (المجلة).
(٤) مسند أحمد، حديث رقم: (٢٣٠٤)، (بنحوه). وسنن الدارقطني، باب المواقيت، حديث رقم: (٢٧٠٥)، ٣٣٩/٣، والمستدرك على الصحيحين، للحاكم، حديث رقم: (٣١٥٥)، ٣٢١/٢. (المجلة).

أن يدرك ما يليق به من تعظيم؛ إذ كيف يستطيعُ العبدُ الضَّعيفُ المحتاجُ إلى مولاه في وجوده وبقائه إدراكَ ما يناسب ذلك المنعم من خشوع وخضوع، وإلى ما يناسب العظمة التي لا نهاية لها من تعظيمٍ وثناء، إلى ما يصح في حقه من توسل ومناجاة، كيف يستطيع أن يصل إلى شيء من هذا والمولى -جلَّ وعلا- وجوده مطلق لا يتقيَّد بمكانٍ ولا ينحصر في جهة ولا يحدُّه زمان، فإلى أي جهة يتوجَّه في عبادته؟ لا شك تعتور الإنسان الحيرة في أداء ما هو واجب عليه نحو الذي خلقه فسوَّاه وأنشأه وعلَّمه وهداه وأرشده، ولا يخفى مع هذا أن الإنسان عاجز عن التَّوَجُّهِ إلى موجودٍ لا يستطيع إدراكه.

فخروجًا من تلك الحيرة مَنَّ الله على عباده فعيَّن لهم مكانًا سمَّاه بيته، وأضافه إلى نفسه، تتنزَّل فيه رحمته ويتجلَّى فيه رضاه، وجعل التَّوَجُّهَ إليه كافيًا في عبادته، بعد أنْ طهَّر مكانه من الرِّجس والأوثان، وطلب إليهم التَّوَجُّهَ في عبادتهم إليه، وأنْ يقصده من استطاع إليه سبيلًا في العمر مرة، وكان ذلك منه سبحانه دَفْعًا للحرج عن الخلق؛ لأنه لو كلفهم بعبادته -وقد دلَّهم بالعقل والشرع على أنه ليس كمثله شيء دون أن يجعل لهم مكانًا يكون توجّههم إليه كتوجّههم إلى ذاته- لَتَحَيَّرُوا كيف يتَّجهون.

ولا يخفى عليك أن القصد الأول من إرسال الرّسل هو دعوة النّاس إلى الإيمان بأنَّ الله واحد لا شريك له، وأنَّ ذلك هو المقصد الأعظم من بعثتهم صلى الله عليهم وسلّم، وإذا كان من أوَّل تعاليمهم هذه الدعوة ومن تعاليم ديننا الحسن أن الله تنزَّه عن المكان والجهة، فلا خوف بعد ذلك على المؤمن من توهُّم حلول ذات الله في مكان؛ لأن ذلك محال عنده، فنسبة البيت إليه وطلب التوجُّه إلى ذلك البيت المُعَظَّم لم يكن إلا لما قدمناه: إخراجًا للناس من الحيرة، وجمعًا لقلوبهم في التوجُّه إلى جهة واحدة؛ توحيدًا للقصد، وإفرادًا للغاية، وإرشادًا لهم إلى أنَّ المراد التوجُّه إلى الله لا إلى ذات المكان. وإذا كان الإيحاء إلى إبراهيم -عليه السلام- باتِّخاذ البيت كان مُقَيَّدًا بنفي الشرك، قال تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ (الحج: ٢٦)

وكان أول ما طلب إليه هو تطهيره ليكون معبدًا يعبد الله فيه عبادة صحيحة:

﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

(البقرة: ١٢٥)

كان توهُّم الحلول أو تعظيم غير الله بعيدًا كلَّ البعد لا يخطر ببال، وكيف يتوهَّم هذا والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة: ١٢٥)

أي معبدًا تعبدون فيه رَبَّكُمْ ورَبَّ البيت، ويقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ (الحج: ٢٥، ٢٦)

ويقول في آية أخرى في محكم كتابه:

﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

(الحج: ٣٠، ٣١)

وفي آية أخرى:

﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الحج: ٣٤، ٣٥)

إذا كان وضع البيت قد أحيط بكل هذا، فَوُضِعَ أساسُه على نفي الشرك واجتناب الرجس وعبادة الأوثان والإقلاع عن قول الزور، فكيف يكون بعد هذا محل لِتَوَهُّمِ مُتَوَهِّمٍ أنَّ في بعض أفعاله أو في التَّوجُّه إلى الكعبة شائبة لغير طهر أو عبادة؟ إن هذا لا يختلج في نفس إنسان، وإذا أنت وقفت على ما كان عليه الناس وقت وضع البيت وأنهم لطول الفترة التي كانت بين الرسل خلطوا ابتداء بين عمل سيِّئ وآخر صالح، فكان منهم من تمسَّك بتعاليم الدين، ومنهم من مال إلى الزّيغ، ناسيًا أو متناسيًا ما أمر به وكُلِّفَ باجتنابه، وما زال ذلك حالهم حتى تفشت فيهم أضاليل وأباطيل الوثنية وخيَّمتْ ظلماتها على العقول، فأخذت ترّهاتها بالألباب، وتغلغلت سخافاتها في نفوس كثير من البشر، والتوى بهم جميعًا القصد، فكان فريق يعبد الشمس لما يراه فيها من نظام بديع، وآخر يعبد النار لزعمه أنها قديرة، وفريق ثالث يعبد الأحجار لزعمه أنها مادة هذا الوجود، إذا أنت وقفت على ذلك جميعه لم يعتورك شك في أن الله -سبحانه وتعالى- أراد تطهير الخلق من أدران الوثنية، فأرسل الخليل -عليه السلام-.

ولقد قص الله علينا ما كان منه عليه السلام مع من أرسله الله إليهم: من دعوتهم إلى نبذ ما يعبدون من الأوثان، وأنه عاب آلهتهم، وكسّر أصنامهم ودعاهم إلى عبادة الواحد الذي لا شريك له، وأنه ترك قومه وهاجر إلى مدين، ومن ثم أُمر بالهجرة بولده إسماعيل إلى بلاد العرب، إلى وادٍ غير ذي زرع، وهناك أمره الله باتخاذ بيته فيه، وأنّه جعل ذلك البيت مثابة للنّاس وأمنًا وهدًى للنّاس ورحمة، إذا أنت وقفت على هذا لم يعتورك شك في أنَّ أساس وضع البيت هو نفي الشرك وإبادة الوثنية.

ولا أدلّ على أنّ وضع البيت إنّما كان لما قدّمناه من فعل رسول الله ﷺ حين دخوله الكعبة، حيث أمر بإزالة ما عليها من الأصنام، وهوى بقضيبه على ما صادفه منها. ولقد كان للنّصارى ومشركي العرب صور وتماثيل وأصنام بالكعبة خارجها وعلى سطحها ما يبلغ ثلاث مئة وستين، أزالها كلها رسول الله ﷺ حين دخل مكة فاتحًا.

عظمة البيت:

حسب المرء في عظمة البيت قول الله -سبحانه وتعالى- في شأنه:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥)

فأضافه سبحانه إلى نفسه، والتّابع يشرف بشرف المتبوع، والمضاف يشرف بشرف المضاف إليه، وقد جعله الله مثابة للناس وأمنًا، وذلك بأن خلق في قلوب الناس ميلًا إلى حجِّه والتوجُّه إليه آونة بعد أخرى، وبثَّ في نفوسهم من احترامه وتعظيمه وعدم سفك الدماء فيه ما كان به أمنًا لهم من المخاوف التي يتخطّف النّاس فيها من كل جانب، وعهد إلى إبراهيم وإسماعيل -ومكانتهما مكانتها- فأوصاهما وكلَّفهما باتِّخاذ البيت، وجعلهما إياه مكانًا للعبادة الصحيحة، ولا تنس ما قدمناه لك من أن نسبة الله هذا البيت إلى نفسه إنما كان لجعله إيَّاه معبدًا يعبد فيه وهو المُنَزَّهُ عن صفات الأجسام، ليس لخصوصية في موقعه، ولا في أحجاره، وإنما كان لجعله رمزًا للمعبود بحق وهو الله، فالإضافة لهذا لا لشيء سواه.

وحسبك أيضًا في تعظيمه أن الله أمر رَسُولَيْنِ من رسله برفع القواعد، وما ذاك إلا تشريفًا لهذا البيت الذي بَنَيَاهُ لعبادة الرحيم الرحمن في هذه البلاد التي كانت الوثنية منتشرة فيها. ولمناسبة ذلك البناء نذكر لك أن الكعبة مازالت على بناء إبراهيم -عليه السلام- حتى بَنَتْها العماليق ثم جُرهم، ولمَّا آل أمر البيت إلى قصيّ بن كلاب هدمها وبناها فأحكم بناءها وسقفها بخشب الدوم وجذوع النخل. ولقد حصل قبل بعثته ﷺ بخمس سنين أنْ هدم السيلُ الكعبة فبنتْها قريش، فلما

انتهوا إلى وضع الحجر الأسود اختلفوا في أي القبائل تختصُّ بشرف وضعه في محله، وكاد الأمر يفضي إلى القتال، فارتضوا رسول الله -عليه الصلاة والسلام- حكمًا، فطلب رداءً، وضع الحجر فيه، وأمر القبائل فأخذت كل قبيلة بطرف من الرّداء ورفعوه حتى إذا وصل إلى مكانه وضعه بيده الشريفة، وهذا أيضًا من تشريف الله للبيت وتعظيمه.

وقد قصرت بقريش النفقة فبنوا الكعبة على ما هي عليه الآن، وكان رسول الله ﷺ يقول لعائشة -رضي الله عنها-: «لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ، لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ»[٥]، ولقد بناها ابن الزبير بعد ذلك على قواعد إبراهيم، ولما فرغ من بنائها طيّبها بالمسك والعنبر داخلًا وخارجًا من أعلاها إلى أسفلها وكساها بالديباج، غير أن عبد الملك بن مروان لما ولي الخلافة هدم ما جدَّده ابن الزبير وأمر بإعادتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ.

ولقد كانت الكعبة قبل الإسلام ذات منزلة سامية عند جميع العرب، لا فرق بين أهل الكتاب منهم والوثنيِّين، وقد تجاوزت مكانتها جزيرة العرب إلى بلاد الهند حتى اعتقد بعضهم تقديس الحجر الأسود، وكانت الصابئة (عبّاد الكواكب) يعتقدون أن الكعبة من البيوت السبعة المعظَّمة عندهم. ومما يدلُّ على عظمتها في نفوسهم أنّهم جميعًا يعتقدون أنها بيت الله المقدَّس، ويحترمونها لهذه النِّسبة، وكانوا يحجُّون إليها من جميع أنحاء البلاد العربية وغيرها في أشهر الحجّ، وهي: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة. وكانوا يحرّمون الشهر الذي فيه الحجّ، وهو ذو الحجة، والذي قبله لأنه وسيلة إليه، والذي بعده لأنه تابع له، ولم يَرِدْ أنَّ أحدًا من العرب عبد الكعبة أو عبد الحجر الأسود، مع أنّهم عبدوا النجوم في أشخاص أصنام.

ويروي بعض المؤرخين أن العرب كانت تحترم مكان الكعبة قبل بناء إبراهيم لها، وعلَّل ذلك بعضهم بأنه ربما كان هناك معبد قديم تلاشى أمره قبل وصول إبراهيم -عليه السلام- إلى تلك الجهة، ومن هذا الاحترام الذي كان لمكان الكعبة ذهب بعض المؤرخين إلى أن سيدنا ومولانا آدم -عليه السلام- بناها قبل إبراهيم. وذهب قوم إلى أن الملائكة بَنَتْهَا قبل آدم، والذي نجزم به هو ما قصَّه الله علينا من أن الذي وضع قواعد البيت هو إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام-، أمَّا ماحكاه المؤرخون فالله أعلم به.

(٥) صحيح مسلم، باب نقض الكعبة وبنائها، حديث رقم: (١٣٣٣). (المجلة).

وممّا يدلّ على سموّ مكانة الكعبة أن الفرس قبل الإسلام والإسرائيليِّين أيضًا كانوا يعتقدون حرمة الكعبة، وكذلك المسيحيُّون، وهذا لم يقع له نظير في الوجود، وهو برهان ساطعٌ على الشرف والعظمة؛ لأنَّ إجماع الناس على اختلاف نحلهم ومللهم على عظمة هذا المكان دليل حيّ على شرفه وعلوّ منزلته. وحسبك دليلًا على شرفه أيضًا، أنَّ الله –سبحانه وتعالى– جعله حرمًا آمنًا يأمن فيه الإنسان والحيوان بل والنبات، وجعل له مواقيت[٦] لا يجوز لمسلمٍ أنْ يجاوزها إلا محرمًا، وهي المواقيت التي وَقَّتَها رسول الله ﷺ، وأوجب الدِّينُ على من يصل إلى هذه المواقيت أن يتّقي ما نهى الله عنه من الرجس، والفسق، والجدال، وقتل الصيد والإشارة إليه، بل والدلالة عليه.

ومن دلائل عظمة البيت (الكعبة) اهتمام الملوك من قبل البعثة بقرون بكسوته، فقد كساها (تُبَّع) ملك حِمْيَر قبل الهجرة بمئتين وعشرين عامًا، كساه بالبرود المقصّبة وعمل له بابًا ومفتاحًا، وكان خلفاؤه من بعده يكسونه بالجلد والقباطي المصرية، وتبعتهم الناس في ذلك حتى كثرت الكساوى وصارت توضع فوق بعضها. وفي زمن قصيّ كانت القبائل تكسوها، وكان أبو ربيعة بن المغيرة يكسوها سنة وقبائل قريش تكسوها سنة، وكستها والدة العباس بن عبد المطَّلب، وقد كساها أشرف الخلق على الله، محمد بن عبد الله –عليه الصلاة والسلام– بالثِّياب اليمانيَّة، ثم كساها عمر، وعثمان، وابن الزّبير، وعبد الملك بن مروان، والخلفاء العباسيُّون كانوا يبالغون في كسوتها، وكساها ملوك اليمن كما كساها ملوك مصر.

حكمة مشروعية الحج:

علمت مما قدَّمناه لك عظمة البيت وأنه موضع الشرف والعظمة، وقد فرض الله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلًا في العمر مرة واحدة، وهذه الفرضيَّة لحِكَمٍ عدّة ترجع للحاجّ من أول الشروع فيه إلى أن ينتهي منه إلى السفر، ولا يخفى ما فيه من الفوائد الجمَّة، وما يترتَّب عليه من المعارف، وما يصحبه من الرِّبح والكسب الماديّين والأدبيّين، فقد يكسب مريد الحجّ إذا هو اتّجر مكاسب لا يحصل عليها في وطنه ومحل إقامته، ولم يحظر الشارع الاتّجار مادام القصد الحجّ، وقد جاء هو تبعًا، وقد يكون مريضًا فيشفى بتغيُّر المناخ، وما يحصل له من الأنس والانشراح بما يقع نظره عليه من بلدان وبحار وخلجان، ويكون السفر سببًا في ذهاب وحشةٍ لحقته بموت قريب أو زوج أو ولد، وناهيك بما يستفيده من يقصد الاستفادة العلميّة، فقد يلقى من يفيده علمًا وأدبًا، فينزل له عصم العلوم ويبيِّن له ما شرد عنه من منطوق أو مفهوم، وقد يروي عنه في سفره كتابًا أو كتبًا سواء كانت في الحديث أو في غيره من علوم الرواية، وقد يفيد هو غيره مسائل، لم يكن

(٦) المواقيت جمع ميقات. والميقات: الوقت المضروب للفعل، والموضع، وهو المراد هنا.

ليستطيع إفادتها للناس لولا سفره للحجّ، وقد يطّلع على نظم في التدريس أو في القضاء أو في جباية الخراج تفيده وتفيد أمّته فوائد جمَّة لم يكن ليحصل عليها لولا الحجّ، وقد يشيد الناس الذين يلقونه بذكره فيعظم شأنه وشأن البلاد التي أنجبته، وقد يترتب على هذا من الفوائد المادية والأدبية الشيء الكثير، أضف إلى ذلك ما يستفيده من تجارب الأمم؛ حيث يلقى أشخاصًا عدة لهم من سعة الاطلاع والعلم الشيء الكثير. وإذا حسبت المسافر قائدًا من القوّاد العظام، أو عالمًا من علماء تقويم البلدان، أو عالمًا من علماء النجوم (الفلك)، سهل عليك فهم مقدار ما يجنيه لأمّته ووطنه من الفوائد العظمى التي نجمت عن سفره للحجّ، وما السفر للحجّ إلا سياحة وضرب في أرض معيَّنة يستفيد السائح فيها ما يستفيده السيّاح، وفوائد السيّاحة أظهر من أن تذكر. هذه إحدى حِكَم فرضيّة الحجّ الظاهرة، والتي كادت تكون محسوسة، أما الفوائد الدينيَّة فإليك بعضًا منها، وسنذكرها مُرَتَّبَة على الأفعال التي رأى الشارع أنه لا بدّ منها في الحجّ:

الإحرام:

قال بعض المؤرخين: إن سليمان -عليه السلام- لمّا بنى هيكل بيت المقدس أحاطه بحرم، وقضى بألا يدخله أحد غير قوم معيّنين، وقال أيضًا: إنَّ النّاس فيما تقدَّم من الزَّمن كان يحيطون معابدهم بحرم لا يطؤه الغرباء، وكانت العرب تضرب الحمى لمراعيها وتجعل له حدودًا لا تتعدَّاها القبائل الأخرى، وكان العزيز منهم يتّخذ له متّسعًا من الأرض يجعله حِمًى له، إلى أن جاء الإسلام فأبطل عليه الصّلاة والسلام كل حِمًى إلا حِمَى الله ورسوله. ولقد علمت مما سبق شرحه أن الله -سبحانه وتعالى- قد جعل لبيته حرمًا ومواقيت لا يتعدّاها من يريد الدخول إلى الحرم، إلا إذا كان على وصف معيّن وهو أن يلبّى ناويًا الحجّ، والتلبية أن يقول: لبَّيك اللّهم لبَّيك، إلى آخر الذكر المعروف، ويأتي بالأفعال التي تكفَّلت كتب الفقه ببيانها.

أمَّا حكمة مشروعية الإحرام فتظهر مما يلي، ذلك أن الحجّ عبادةٌ الغرضُ منها القرب إلى الله والوصول إلى ما أعدّه سبحانه وتعالى للنفس المحسنة من حسن الجزاء، ولا يكون ذلك عادة إلا بتجريد النفس عن شهواتها، وخروجها عن مألوفاتها، وكفّها عن لذائذها، وقطع علائقها بالأغيار، وابتغائها حمى مولاها الواحد القهار. ومظهر هذا الاقتصار على الضروريات للحياة والتجرّد لله -سبحانه وتعالى- في جميع الحركات والسكنات، ولا يخفى أنَّ الشأن في كل من أراد الإقدام على ملك من الملوك أن يجتهد فيما يوصّله إلى مقصده من الوصول إلى حضرة

الملك والمثول بين يديه، فمن أراد الوصول إلى علّام الغيوب بزيارة بيته ودخول حرمه، وجب عليه أن يتجرّد عما سواه من نعيم الحياة إلا بالقدر الذي يستطيع به مواصلة العمل الذي قصده، فينخلع مدة الزيارة عن كل أنواع الزِّينة، ويندرج في سلك المنقطعين لله انقطاعًا تامًّا، فيترك الجدل والخصومة، وينتهي عن كل ما نهى الله عنه، مجتنبًا كل ما من شأنه أن يبعده عن الحظيرة القدسية، مؤاتيًا كل عمل يقرّبه من الحضرة الإلهية.

وبدهي أنَّ من قصد شيئًا قصده من الطريق المُوَصِّلِ إليه، وبما أن قصد الحاجّ زيارة بيت الله فعليه أن يأتي البيت من بابه، ولا يتأتى له ذلك إلا بعكوفه على ما شرطه الله لزيارة بيته، وذلك بموالاة التلبية والدّعاء والخضوع لمولاه الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء عمَّن قصده، وبما أنّه قادم على بيت الله العزيز الذي ذَلَّتْ له الجبابرة، وخضعت له الأكاسرة، فعليه أن يستكين ويخضع ويذلّ ذُلَّ العبيد؛ لِيكون ذلك أدعى إلى قبوله وإجابة سؤله؛ لأن عطف الملوك إنّما ينال بعمل ما يطلبون، والانصياع إلى ما يأمرون، والطاعة والخضوع إلى ما به يشيرون.

الطواف - السعي - رمي الجمار:

قدّمنا أنَّ القصد من الحجّ نَيْلُ رضاء الله والتَّمَتُّع بنعيمه والعمل على كل ما يُوَصِّل إلى تلك الغاية العظمى، ولا يخفى أن نَيْلَ الدَّرجات لدى الملوك والحصول على عطفهم إنَّما يكون بامتثال أوامرهم والابتعاد عما يبغضونه، وأنَّ الحظوة عندهم تتفاوت مراتبها بحسب طاعة العبد وعمله على رغبات مولاه، فمن امتثل مجانبًا البحث، وقام بما أُمر به دون جدل وبغير بحث في الأسباب والعلل التي دعت إلى الأمر، كان أقرب من غيره وأكثر حظوة عند سيِّده، وكلما بالغ في الإخلاص نال من الدرجات أسماها، وإذا أُمر بأمر ولم يعرف حكمته ولا السبب الباعث إليه فامتثل، كان مثالًا أعلى في الخضوع ونال رضاء مليكه، كذلك - من غير تمثيل- يأمر الله عبيده بأنواع من العبادات لا يعقلون كنهها ولا يمكنهم الاهتداء إلى معانيها ولا إلى فهم الحكمة الدّاعية لشرعيتها لضعف مستواهم العقلي عن فهم الحكمة، فمن امتثل وأطاع وذلّ وخضع واستكان لمولاه واسترقّ لمن أنشأه، استحقَّ الرضاء التام، وينال العفو الشامل، ويبلغ منزلة المصطفَين الأخيار ودرجة المقرَّبين الأطهار، ومن أعرض ونأى بجانبه وتوانَى، كان من المبعدين عن الحضرة، المحرومين من الحظوة، واستحقَّ السخط.

هذا النوع من الأوامر يشرع اختبارًا للنّاس؛ ليكونوا شهداء على أنفسهم بأن من خالف نفسه

وهواه وخضع لأوامر مولاه استحق رضاه ودخل حظيرة قدسه، فنال من حسن الجزاء ما كتبه الله للعابدين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ومن ملكته شهوته وغلبت عليه شقوته واستولى عليه الشيطان واسترقَّ لنفسه الأمارة بالسوء، باء بالخسران وكان حقيقًا بالحرمان. هذا النوع من العبادات معيار الطاعة، ومنه أكثر أفعال الحجّ كالطّواف والسَّعي ورمي الجمار، شرعها الله ولم نقف على حكمة مشروعيتها، ابتلاءً لعباده واختبارًا. فمن جدَّ في القيام بما أُمر به وعمل صالحًا كانت له حظوة قبول ضيافته على مولاه بدخول بيته، وجوزي الجزاء الحسن وأكرمت وفادته، ومن قصّر أو توانى عن العمل لم يَكُ في عداد المحظوظين، ولم ينل رضاء ربّ البيت، وشُيّع باللّعنة والسّخط (وهذا معنى معروف لدى البشر أنفسهم في معاملة ملوكهم وكبرائهم)، فإنَّ من دخل بيت الملك فلم يعمل بالنظام الموضوع للمقابلات أو اعترض على نظام التّشريفات، كان من المغضوب عليهم ولم يفلت من العقاب، ومن قام بما فرض من النُّظُم وحافظ على تنفيذها بدقّة، نال العطف وحظي بالمكافأة.

على مثال هذه المثل التقريبيّة شُرّعت أعمال الحج. وإذا كان هذا حال العبيد مع ملوكهم فأحرى بالجميع أن يكون هذا حالهم مع سيّد الجميع وملك الملوك، العزيز القدير، عالم الغيب والشهادة، القاهر فوق عباده، الذي من عرفه حقّ معرفته أيقن بأنّ كل فعل من أفعاله –جل وعلا– للحكمة، وأنّ العجز عن إدراكها لا ينافي ثباتها وتقرّرها، ومن فطن لهذا فقد فطن للخير ولم يجعل للشيطان عليه سبيلًا يُحَسِّنُ له الوقوع في المهواة بدعوته إلى البحث عن علل وحكم لا يصل مستوى عقله إلى درجة فهمها، يسوِّل له ذلك ليكون ذريعة لدعوته إلى ترك ما يؤمر والوقوع فيما يجب عليه اجتنابه، حتى إذا وقع قال: إنِّي بريء منك، وكانت النتيجة المُحَتَّمَة استحقاقهما معًا عذاب النار.

شرع الله الكثير من أفعال الحج، وأمر الناس بها أمرًا تعبديًا لحكمة علمها جلَّ شأنه، وقد جهد الناس في تلمُّس حِكَم لهذه العبادات، فقالوا عن الطواف وقد سمَّاه رسول الله صلاة، غير أنه أباح الكلام فيه: إنَّ السِّرَّ فيه التَّشَبُّه بالملائكة الحافِّين حول العرش، وكانت الأشواط سبعًا لما في السبع من الحِكَم التي لا يحيط بها إلا علّام الغيوب، فقد جعل الله الأيام سبعًا، والأفلاك سبعًا، والسموات سبعًا، والأرضين سبعًا، كما التمسوا حكمًا لغير ذلك من أفعال الحجّ تُعْلَم من مراجعة كتب الفقه.

الهدي - القربان:

التقرب إلى الله بقربان: القرابين أمر معروف لدى البشر من وقت بزوغ فجر التاريخ، فقديما قَرَّبَ وَلَدَا أبي البشر (آدم) عليه السلام قرباناً فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر، وكان ما كان بينهما بما قصّه الله علينا، وقد جرى الناس على أثرهما فقرَّبوا القرابين إلى الله في معابدهم. وقد قصَّ علينا القرآن ما كان من أمر الله لخليله بذبح ولده وفدائه إياه بعدُ بذبحٍ عظيم، وقد عرضت الدِّيانات المعروفة جميعها للقربان واستقرَّ فيها، وجاء الإسلام فأقرَّ أمره وأبانَ أنَّه مشروع، قال تعالى:

﴿ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ (الحجّ: ٣٦)

أي من أعلام دينه، وبيَّن أنَّ من يُعظِّم شعائر الله كان له أجر كبير؛ لأنَّ منشأ تعظيمها ومصدره تقوى القلوب. وقد أرشد الإسلام إلى أن الغرض من الهدايا ما يترتب على نحرها وذبحها من نفع الفقراء البائسين، فتسدّ خلتهم، ويُكْفَوْنَ حاجتهم، ويشاركون أولي النّعمة فيما أنعم الله عليهم، وأما الحضرة العليّة والذات الصمدانيّة فهي غنيَّة عن العالمين لا ينالها منها شيء، وإنَّما تجازي المحسن بقدر ما يُحسن من عمل ويقدم من طاعة وعبادة، قال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ (الحجّ: ٣٢)

وقال تعالى:

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴾ (الحجّ: ٢٨)

وفي الآية الأخرى:

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ ﴾ (الحجّ: ٣٧)

ولعلَّك بعد هذا فهمت الحكمة في مشروعية الهدي والأضحية، وأنَّ الغرض منه نفع الفقراء وسدّ حاجة المحتاجين. ولقد أهدى رسول الله ﷺ إلى الحرم مئة من الإبل نحر بعضها بنفسه وأناب عَلِيًّا - رضي الله عنه - في نحر الباقي، كما أنَّه ﷺ ضحَّى بكبشيْنِ ذبحهما بنفسه.

الوقوف بعرفة:

الركن الثاني من أركان الحجّ هو الوقوف بعرفة في التاسع من ذي الحجة، وَحَدِّثْ عن مزايا هذا الوقوف ما شئت أنْ تُحدِّث، فهو المؤتمر العام لجميع المسلمين من أي مكان، يجتمع فيه الهندي، والسّندي، والعراقي، والجاوي، والمكي، والمدني، والشّامي، والمصري، تجتمع فيه سائر وفود الأقطار الإسلامية، فيقفون في صعيد واحد كأنهم بنيان مرصوص، يدعون الله